الحرب والجامعات فى بريطانيا

غيّرت هذه الحرب المنتهية كثيراً من القيم والأوضاع فى حياة الغرب . وليس أثرها فى الحياة العقلية والفكرية هناك أقل ظهوراً من أثرها فى الحياة العملية ، وفى معالم الحضارة المادية . والذى يدرس تطور المدنية فى أوربا الحديثة لا يملك إلا أن يلمس ارتباط الحياة العامة وتنظيم المجتمع بالحياة العقلية واتجاهات الفكر والثقافة ؛ ذلك أن الناس هناك ، لاسيما فى بلد كبريطانيا العظمى ، يملكون من أقدارهم ما يؤهلهم لأن يفكروا — أو يفكر لهم فريق منهم على الأقل — فى مستقبل حياتهم وفى الأسس المادية والقواعد العملية التى ينبغى أن يقوم عليها تنظيم مجتمعهم ، بعد أن هزته هذه الحرب هزتها العنيفة ، فكشفت عن نواح كثيرة من القوة ينبغى أن تدعم ، وعن نواح غير قليلة من الضعف ينبغى أن تعالج ، ونواح قليلة أو كثيرة من النقص ينبغى أن تستكمل .

ولعل من أظهر ما يمتاز به المجتمع فى الغرب ، وفى بريطانيا التى نحن بصددها الآن ، حيويته وحساسيته . فهو يشعر — أو يشعر مفكروه على الأقل — بالحاجة إلى الإصلاح ، متى لاحت بوادر تلك الحاجة فى الأفق البعيد ؛ وهو يبدأ سعيه إلى الإصلاح قبل أن تلح الحاجة إليه ، وقبل أن يصبح ضرورة لامفر منها . وقد لا نخرج كثيراً عن الحق إذا نحن قسنا حيوية الشعوب والأمم فى الجيل الذى نحن مقبلون عليه بمقدار حساسية كل منها فى الشعور بالحاجة إلى الإصلاح ، والسعى إليه سعياً موجهاً يقوم على أساس من التفكير ورسم الخطط ، بدلا من الإصلاح المرتجل الذى لا يسبقه فكر ، ولا ينزع بالناس إلى اقتناع .

وكثيراً ما جنبت مثل هذه الحساسية المجتمع البريطانى فى تاريخه الحديث والمعاصر أخطار الانقلابات الخاطفة وويلات الثورات العنيفة . فكان قادة

الفكر فيه يستشعرون الحاجة إلى التحول ، فيغيرون من أفكارهم ويحولون من اتجاهاتهم ، فى ضوء الخبرة والتجربة ، سواء منها ما يقع فى بلادهم وتحت حسهم ، وما يقع فى غير بلادهم ، ولكن فى ظروف قد يتحقق ما يشبهها من قريب أو بعيد فى بلادهم إن تركت الأمور دون توجيه . والغريب — أو لعله ليس غريباً — أن بريطانيا حاولت جهد طاقتها أن تتعلم من هذه الحرب المنتهية أكثر مما تعلم غيرها ، وأن تفيد من هذه التجارب الخطرة التى مرت بها ، أو مر بها غيرها من الأمم ، إفادة قد لا تبدو آثارها عاجلة ، لأنها لا تسلك سبيل الثورة ، ولكن الزمن كفيل بأن يتكشف عنها فى جلاء ، لأنها تتناول نظم المجتمع فى الصميم .

والذى يعنينا الآن من حركة التطور هذه أن نحاول أن نتبين مكان الجامعات من التحول الجديد ، ومبلغ مساهمتها فى إرهاف حساسية المجتمع لظروف البيئة والزمن وأطوارها المتجددة ؛ بل مكانها من توجيه الفكر والحياة العقلية والثقافية قبل أن تستقر على اتجاه معين ، ثم ربط الحياة العملية العامة بالحياة العلمية والفكرية للجيل الجديد .

وليس يعنينا فى هذا المقام كثيراً أن نعدد ما ساهمت به جامعات بريطانيا فى الحرب إذ الحرب هناك كانت كاملة شاملة ، ساهمت فيها الجامعات كما ساهم غيرها من مؤسسات الامة ومصالح الدولة ؛ فاشترك كثير من رجال الجامعات وشبابها فى الحرب والقتال اشتراكاً فعليًّا ؛ وهبط عدد الطلاب المنقطعين للعلم والدراسة هبوطاً محسوساً ، فأصبح مقصوراً على من لم يبلغوا سن التجنيد من الطلاب والطالبات ، أو على المتفوقين تفوقاً خارقاً ، والذين يدرسون دراسات خاصة ، تجعل من الخير للأمة استمرارهم فيها ، لعلهم يساهمون يوماً ما فى تقدم العلم والمعرفة تقدماً يذكى من إنتاج الأمة وقدرتها على الحرب والكفاح ؛ أو على فئة قليلة من غير الصالحين للجندية والخدمة العسكرية فى أشكالها المختلفة ؛ ثم على نفر متناقص العدد من الأجانب وأبناء الأمم المحايدة وغير المحاربة ممن يدرسون فى بريطانيا . كذلك ساهم علماء الجامعات والقائمون بالأبحاث فيها مساهمة فعّالة فى جهود بريطانيا ، فى الإنتاج الحربى ؛ فتوثقت الصلة بين معامل البحث ودور الصناعة ؛ وضاعف الباحثون والمخترعون جهودهم لتسخير العلم فى خدمة أداة الحرب فى صور وأشكال تعدو الحصر . ولولا ذلك

ما استطاعت بريطانيا مواصلة الحرب فى الدفاع أولا ، ثم فى الهجوم خلال سنوات الحرب الطويلة ، وعلى تلك الصورة التى انتهت بها وبحلفائها إلى النصر . كذلك توثقت الصلة بين معامل البحث وحقول الزراعة ؛ فأصبحت بريطانيا بعد انقضاء خمس سنوات على الحرب تنتج ثلثى ما تحتاج إليه من الأغذية ، بعد أن كانت قبل الحرب لا تنتج غير الثلث . وفى هذا تقدم لا يكاد يصدق ، خصوصاً إذا راعينا أن بريطانيا منذ ثورتها الصناعية لم تكن بلداً زراعيا بالمعنى المعروف ، وأن التقدم فى الإنتاج الزراعى بطىء بطبيعته ، ومع ذلك فقد استطاع العلماء البريطانيون أن يقودوا الزراع وأن يرشدوهم فى مسائل الاستنبات وانتقاء البذور وتنويع المحاصيل وإصلاح الأراضى وتجديد الآلات ومكافحة الآفات وغير ذلك مما كان له أثره الرائع فى إنقاذ البلاد من غائلة الجوع ، بعد أن كادت حرب الغواصات أن تحول بين اهلها وبين أن يطعموا من الخارج شيئاً .

قد ساهمت الجامعات البريطانية والعلماء البريطانيون إذن مساهمة فعّالة فى جهود بريطانيا العسكرية والحربية العامة ؛ وكان لتلك المساهمة الحيوية أكبر الأثر فى كسب الحرب . ولكن المهم أن الحرب لم تشغل الجامعات ورجالها عن التفكير فى السلم ؛ أو على الأقل فيما بعد الحرب من سنين قد تكون سلاماً ، وقد تكون انتقالا إلى حرب من جديد . وإنما انتهز رجال الجامعات فرصة الحرب ليدرسوا ما كشفت عنه من أوجه العيب أو النقص فى مجتمع ترى الجامعات بحق أن عليها جانباً كبيراً من قيادته ورسم خططه للمستقبل ، فى عصر كاد العلم أن يتزعم فيه كل مرفق من مرافق الحياة ؛ فأصبح التفكير والتبصير ورسم الخطط والتوجيه لزاماً على من أراد أن يعيش من الشعوب ؛ وأصبح واجبا على الجامعات إن هى أرادت أن تؤدى رسالتها للمجتمع فى السلم كما أدتها فى الحرب أن تتخذ عدتها وأن تعدل سياستها وتجدد من أداتها الخاصة ومن طرائقها فى البحث والتعليم والتربية وإعداد قادة الأمة فى المستقبل .

لذلك أخذ الجامعيون البريطانيون يفكرون فى المستقبل رغم ما أخذتهم به الحرب من شدة وقسوة . وكان تفكيرهم فى المستقبل جديا وشاملا فى الوقت ذاته ؛ ففتح المجال أمام التفكير الحر فى شئون الجامعة ووظيفتها فى المجتمع ، وكثر النقد واتسعت دائرته حتى شملت الجامعة بمعناها الأوسع ، فشارك فيه رجالها وأبناؤها وخريجوها فى مختلف مناحى الحياة ، بل شارك فيه رجال الأعمال

والحياة العملية فى السياسة والصناعة والتجارة وما إليها . ومع أن الحكومة شاءت أن تحفظ للجامعة قداستها وحريتها فلم تشترك فى اللجان العديدة التى تألفت لهذا الغرض ، ولم تحاول التدخل فى شئون التعليم الجامعى وتنظيمه ، فقد كان مفهوماً أن الحكومة تشجع الفكر الحر فيما يتصل باصلاح شئون الجامعات ؛ كما أن السلطة التشريعية ، وإحدى لجان مجلس العموم بنوع خاص ، أثارت غير قليل من النقاش حول هذا الموضوع . بل إن الغريب أن الجامعات فى بريطانيا كانت أسبق مؤسسات الأمة إلى أن تتعلم درساً جديداً من هذه الحرب ؛ فدعت الأساتذة الأجانب الذين لجأوا إليها من بلاد أوربا قبيل الحرب وخلالها ، وكانت كثرتهم من قادة الفكر الحر فى القارة الأوربية ، إلى المساهمة فى المناقشات الدائرة حول رسالة الجامعة فى المجتمع والجيل البريطانى الجديد . وأخذت الجامعات بكثير من آراء هؤلاء الأساتذة الأجانب فى رسم خططها للمستقبل . وقد تزعمت الجامعات البريطانية الأمة فى هذا الصدد بالتحرر من بعض قيود الماضى ، والخروج على العزلة المعروفة عن الخلق البريطانى .

وترتب على هذا كله أن خرجت الجامعات البريطانية من الحرب ببرنامج جديد يساير الزمن ، بل يسبق الحاضر إلى ماينبغى أن يقوم عليه المستقبل . وهذا البرنامج الجديد قد رسمت منه خطوطه الأساسية ومعالمه الكبرى ، كما رسمت منه بعض تفصيلاته ؛ ولكنه مع ذلك برنامج مرن قابل للتطور والتغير ، شأن كل برنامج يقوم على أساس من الفكر الحر والتفكير السليم . وهو فوق ذلك برنامج غير رسمى ، وضعه رجال العلم لتهتدى به جامعاتهم دون أن تلتزم باتباع حرفيته ، أو بالتقيد فى حدوده ؛ وذلك أيضاً شأن كل برنامج جامعى صحيح ، يحفظ للجامعة روحها وتقاليدها وتراثها فى أن تحيا حرة طليقة ، وفى أن تحفظ لكل جيل وكل زمان حقه فى أن يفكر بنفسه لنفسه .

ورسالة الجامعة كما يحددها الجامعيون تشمل مسائل أربع ؛ عرض لها البرنامج الجديد ، أو هو بعبارة أصح قد أعاد استعراضها فحددها فى ضوء ما استجد من ظروف ، وما يجب أن تضطلع به الجامعة من مهام ومسئوليات . فالجامعة ينبغى أولاً وقبل كل شىء أن تحتفظ بمكانتها كمركز للثقافة القومية العليا ، تلتقى فيه الأفكار فيحتك بعضها ببعض وتتفاعل فى ظروف مستمدة من الحياة البريطانية ذاتها ، حتى تتخذ فى النهاية طابعاً يميز الفكر البريطانى عن غيره

والثقافة البريطانية عن غيرها ؛ اذ أن الجامعة إذا لم ترتبط بالبيئة المحيطة بها لم يعد لها وجود مميز ، وإذا لم ترتبط بحياة المجتمع وتحس حاجاته العقلية والثقافية لم تستطع أن تستجيب لتلك الحاجات استجابة تعين المجتمع على أن يؤمن بقيمتها ، فيستجيب هو من ناحيته ويتأثر بما تغذيه الجامعة من نتاج العقل وثمار الفكر

ويحرص الجامعيون الآن فى بريطانيا حرصاً شديداً على أن يؤكدوا للناس من جديد أن الجامعة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد « معهد عال » يمثل « المرحلة العليا » من نظام التعليم العام ؛ فهى أكبر من ذلك ، وأعم من ذلك وأعمق من ذلك ؛ إذ هى تتصل بحياة الشعب وثقافته كلها داخل نطاق التعليم وخارجه . وقد اعترفت الدولة لها بذلك ؛ فعند ما وضعت وزارة المعارف البريطانية مشروع قانون التعليم الجديد وأقره البرلمان هناك لم يتعرض ذلك القانون بكثير أو قليل للجامعة والتعليم الجامعى .

والجامعة إلى جانب ذلك تعنى بناحية ثانية ؛ فهى القوامة على الأبحاث والدراسات التى تساهم بها الأمة فى تقدم العلم وازدياد المعرفة الإنسانية . وهذه الأبحاث ينبغى أن تشمل نواحى المعرفة جميعاً ، سواء فى ذلك علوم العقل والثقافة الخالصة ، وعلوم المادة واستغلالها العملى فى قضاء مصالح المدنية . وبدون هذه الأبحاث لا يكتمل للجامعة كيانها ولا تعتبر جامعة بالمعنى الكامل الصحيح . بل إن من رأى القائمين على شئون الجامعات فى بريطانيا الآن أن من الواجب أن تهيأ الظروف بعد الحرب لينفق رجل الجامعة نصف وقته على الأقل فى إجراء الأبحاث العلمية الخالصة ؛ كما أن من رأيهم أن ترفع الدولة إعاناتها للجامعات إلى خمسة أمثال ما كانت تدفعه قبل الحرب ؛ وذلك حتى تتيسر ظروف البحث ووسائله من إقامة المعامل ودور التجارب وحقولها وغير ذلك ؛ وإن كان من رأيهم فى الوقت نفسه أن تحتفظ الجامعات باستقلالها التقليدى فى البحث ، فلا تكون مسخرة من الدولة لإجراء أبحاث معينة بالذات أو تقديم بحث على بحث كما كانت الحال أثناء الحرب ، وإنما يجب أن تتحرر الجامعة من كل قيد ، وألا يسيطر على رجالها أى مسيطر خارجى فيما ينزعون إليه من أبحاث بصرف النظر عن قيمتها بالنسبة للأمة أو الدولة . وحجتهم فى ذلك قوية ظاهرة ؛ فالجامعة فى كل دولة من الدول إن حصرت أبحاثها فيما تكلفها به الدولة لقاء ما تدفعه من إعانة جرّت على أبحاثها رقابة قومية ضيقة تقضى على ما يجب أن

يتوافر للعلم والبحث من حرية ، ويُضرب على نتائج تلك الأبحاث أو جانب منها نطاق من السرية التى تقتضيها الأنانية القومية ، ولا بد أن يؤدى ذلك إلى تضييق نطاق التبادل الفكرى والعلمى بين الأمم ، مما ينتهى حتماً إلى تأخر العلم والبحث العلمى فى تلك البلاد جميعاً ؛ وفى هذا ما يقتل روح العلم ويطفئ نوره ويرجع بالإنسانية إلى وراء . . . وسنرى فى السنوات القابلة ما ينتهى إليه الصراع بين الروح العلمى الجامعى من جهة والنزعات القومية الظاهرة والخفية من جهة أخرى .

وأما الناحية الثالثة التى تعنى بها الجامعة فى أداء رسالتها فأن تكون أداة لإذاعة المعارف ونشرها عن طريق التعليم . ومع أن هذه كثيراً ما تكون الناحية الظاهرة من نشاط الجامعة ، فإن فريقاً من الجامعيين المستمسكين بجامعيتهم يضعونها فى المرتبة الثالثة بين أغراض الجامعة ؛ وإن كانت كثرتهم لا تستطيع أن تتصور وجود الجامعة إذا لم يقترن فيها البحث العلمى وتقدم المعرفة بالتعليم ونشر تلك المعرفة ، لا سيما بين شباب الأمة ؛ فكلا الغرضين مرتبط بالآخر ومتداخل فيه . والجامعة لا تكون جامعة إلا إذا كانت مقرًّا للثقافة القومية العليا ، ومركزاً للبحث العلمى الخالص ، وداراً للعلم والتعليم وتخريج العلماء الناشئين والمواطنين الصالحين فى مختلف مناحى الحياة . وقد تنبهت الجامعات إلى ذلك منذ القرن الماضى ، فقال أحد الجامعيين إذ ذاك مامعناه : « إن الجامعة إذا لم تقرن التعليم بالبحث كانت كالعين الحمئة أو البركة الراكدة ، يعب الطلاب من سطحها الماء الآسن مختلطاً بخيوط الطحاب والريم ؛ فإذا ما جمعت بينهما غدت كالنبع الفائض ، أو المورد الجارى ، ينهل منه الطلاب ماء قراحاً يروى ظمأهم ، ويجلو نفوسهم ، ويفيض إلى غيرهم من الظامئين » .

وإذا نحن تتبعنا تاريخ الجامعات البريطانية من الناحية التعليمية وجدنا أنها كانت تعنى فى القرن الماضى أكثر ما تعنى بتخريج قادة الأمة وحكام الإمبراطورية . فكان يؤمها فى الغالب أبناء طبقة معينة تعد نفسها للحكم والإدارة فى بريطانيا وما وراء البحار ، وتعتبر التعليم الجامعى وسيلة صالحة بل أداة ضرورية فى إعداد الفرد من هذه الناحية . ثم تحولت الجامعات عن ذلك خلال الجيل الأخير إلى ما أصبح يعرف « بالتعليم الجامعى المهنى » الذى يعد الطلاب لمهن معينة ؛ وأصبحت كثرة هؤلاء الطلاب ممن يقصدون إليها لينالوا قسطاً معيناً من

التعليم الفنى الخاص المتصل بإحدى المهن ، كالمهندسين والأطباء ورجال القانون ونفر من المعلمين وغيرهم . ومع أن هذا النوع من التعليم زاد من ارتباط الجامعة بالحياة العملية العامة ، فإن رجال الجامعة أحـذوا يحسون فى الفترة الأخيرة أنه أدى إلى نوع متطرف من « التخصص » فى التعليم ؛ فانصرفت جهود الجامعة إلى تخريج المحترفين الذين يجيدون المهن المختلفة ، ولـكنهم لا ينالون القـدر الـكافى من الثقافة الجامعية العامة . فالطبيب الجامعى مثلاً قد يكون طبيباً ماهراً ، ولـكن انصرافه الشديد لإتقان تعلم مهنته أثنـاء وجوده فى الجامعة ومستشفياتها يصرفه عن الإفادة من وجوده فى الجامعة لتوسيع ثقافته العامة ، واستكمال أسـباب تكوينه كمواطن يجب أن يتفهم المجتمع الذى يعيش فيه ، وأن يدرك قيمة مهنته فى الحياة العـامة . وكذلك الحال فى المهندس وغيره ممن يتخرجون فى الجامعة . وحتى فئة المدرسين قد تبين الآن أن الجامعات فى بريطانيا لا تخرج منهم إلا ربع من تخرجهم دور المعلمين التى لا تتصل بالجامعات ؛ وذلك يعتبر نقصاً تسعى الجامعات إلى تلافيه ؛ إذ أن من يريد أن يحترف مهنة التعليم هو أولى من غيره بالحياة فى الوسط الجامعى ، والإفادة منه فى تكوينه الثقافى العام إلى جانب إعداده لمهنته الخاصة . كذلك ترى الجامعات أن يتسع نطاق عملها فى التعليم المهنى ، بحيث يشمل جميع من يعدون أنفسهم للمهن العامة فى المجتمع ، لا سيما ذات الصفة الاجتماعيـة ، كمهن إدارة الأعمال فى الشركات والمصانع ، ووظائف الإدارة الاقليمية والبلدية وغير ذلك .

وأما الناحية الرابعة والأخيرة التى تتمم رسالة الجامعة فى الجيـل الجديد فمرتبطة بالناحية الثالثة ؛ ولـكنها تتناول جانباً خاصا من التربيـة والتهذيب يستحق عناية خاصة ، وهو جانب التربية الخلقية ، التى لا يقصد بها هنا ترويض الطالب الجامعى على الخلق الـكريم والأخلاق الفاضلة ؛ إذ ليس من وظيفة الجامعة تهذيب النفوس بعـد أن يصيبها السقم ، وتقويم الخلق بعد أن يعوج ؛ ولن تستطيع الجامعة أن تحل محل البيت والمدرسة ، ولا أن تصلح ما أفسداه إلا بقدر محدود وفى حدود ضيقة . وليس يجدى كثيراً فى دور الشـباب أن تنقلب الجامعة إلى دار للتأديب والتهذيب أو للوعظ والإرشاد ؛ بل إن ضرر ذلك قد يكون أكثر من نفعه . وليس من الإنصاف أن تكلف الجامعة مالا تطيق وما لم تنشأ من أجله . لذلك يرى الجامعيون أن يقتصر التهذيب الخلقى فى

الجامعة على ما تستطيع ان تتقن ؛ فتعين الطالب على تربية شخصيته فى دور الشباب، وتحول نشاطه الفائض إلى ما ينمى فيه روح الجماعة ويعوده تحمل المسئولية وقبول التضحية كمواطن يعيش للمجتمع كما يعيش لنفسه . ويذهب بعض الجامعيين فى بريطانيا إلى أن يقترح فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على الطلاب خلال عام قبل تقدمهم للدراسة الجامعية مباشرة ؛ فهى خير ما يعود الطالب الطاعة ، ويحببه على حب العمل فى الجماعة ومن أجلها ؛ وإن كانت كثرة رجال الجامعة ترى أن من الممكن تربية الشخصية وإنماء روح الجماعة فى الطالب إذا توسعت الجامعات فى تكوين جمعيات الطلبة من رياضية واجتماعية وعلمية وأدبيه ؛ فهى التى تمكن الطلاب من أن يفيدوا إلى أبعد حد مما يعرف بالحياة الجامعية فى أوسع معانيها . ولا شك أن إعداد الطالب من هذه النواحى المتصلة بالشخصية وتحمل المسئولية وإدراك الحق والواجب فى وضعهما الصحيح ، كل ذلك مما يعين الطالب بعد تخرجه على أن يصبح مواطناً صالحاً مهما كانت مهنته فى المجتمع عالماً أو طبيباً أو مهندساً أو معلماً أو غير ذلك .

* * *

تلك أمهات المسائل التى فكر الجامعيون البريطانيون فيها اثناء الحرب . وهى مسائل تتناول رسالة الجامعة من أساسها ، وترسم الخطة لتحول خطير فى الفكر والحياة العقلية ، وفى علاقة العلم والتعليم بالحياة العملية والشئون العامة . وقد يبدو غريباً أول الأمر كيف يشغل القوم أنفسهم بمثل هذا البحث فى حين كان المنتظر أن تشغلهم الحرب وأن تلهيهم عن كل شىء ، وفى حين يبدو التعليم الجامعى والثقافة الجامعية فى أيام الحرب لوناً من ألوان الترف العقلى دونه أمور كثيرة أشد خطراً فى حياة أمة محاربة . ولكن العصر الحديث لم يعد يحتمل أن تشغلنا فيه مشاكل اليوم مهما اشتدت عن التفكير فى الغد وشئونه . والجامعة إن أرادت أن تقود الأمة فى الفكر والثقافة يجب أن تكون أول من يستشعر تغير الزمن ، وأول من يستعد للمستقبل ؛ وهى فى المجتمعات الصالحة للبقاء قد حاولت أن تفعل ذلك .

وبعد ، فقد يكون فيما ذكرت ما يثير الفكر فيما نحن بسبيله فى مصر . فليس من شك فى أننا ساهمنا فى الحرب ، وفى أن مجتمعنا المصرى سيتأثر بها فى مستقبله

القريب إلى حد لا يقل عن تأثر غيره بها من الشعوب. . وليس من شك أيضاً فى أن لنا جامعة أو جامعات قد تصدّت ، أو كان يجب أن تتصدى ، لزعامة الفكر والنهضة العلمية والثقافية ، بل النهضة العامة ، فى بلادنا وفى جانب من بلاد الشرق . . . فهل أيقظت الحرب فينا ، أو هل يبعث انقضاؤها وإقبال السلم ، بعض هذا الوعى ، ولو فى فئة ممن بيدهم شئون الجامعات فى مصر ؟

سليمان حزين